القرآن الكريم
ومظاهر تنافس صحابة النبي
في كتابته وجمعه

الحسين وگّاگ

دعاني إلى التشرف بإلقاء هذا الحديث أمامكم اليوم، حول الجهود المبذولة في كتابة القرآن الكريم وجمعه، وهو كتاب العربية الأول والأكبر، ما اعتادته لجنة اللغة العربية بأكاديمية المملكة المغربية، من إثراء مناقشات حكيمة ومتواصلة، وتنظيم ندوات موضوعية، في كل من الرباط سنة 1414هـ– 1993م وفاس سنة 1426هـ – 2005م داعية إلى استنهاض الهمم، وفتح مجالات أخرى مشجعة لتحسين وتجديد أساليب مواد هذه اللغة، والعمل على تيسير استعمالها في الحياة العامة، حتى تعود إلى ازدهارها، وتنير العالم مرة أخرى بما عرف عنها من المؤلفات والمتون العلمية ووضع المصطلحات البرية والبحرية والفنون

الحضارية التي سبق لها أن وسعت بها المدارك الإنسانية، وأشرقت شمسها من الغرب ومن الأندلس بالذات.

وإن ما تومن به هذه اللجنة المخلصة، من أن للعربية مواطن قوة كامنة تمكنها من أن تكون لغة عصرية ودولية، إذا حظيت بفرصة تاريخية أخرى، تنقلها من لغة أدب وتواصل لأفراد قليلين، إلى لغة علم وتواصل شامل لمئات الملايين من بلدان العرب والمسلمين، جعلها تتأمل وتحاول أن تنبذ العجز المؤلم والمؤدي إلى الخصاص الصّارخ والمعوق للحرف العربي، وتقبل بأسلوبها الحكيم لإبراز محاسن هذه اللغة، حتى تواصل سيرها نحو التحديث والتطوير.

ويبدو أن أملها قوي في الله، وفي راعي أكاديمية المملكة المغربية، مولانا محمد السادس الذي خصص للقرآن الكريم قناة ليتعظ به المواطنون، ويتحلوا بأخلاقه، أن يجعل لها أعزه الله، تلك الفرصة التي ستحقق إن شاء الله امتدادا لكل ما بذل من القرون الأولى لتوحيد أداء القرآن، ويهيء لها تجديد الآليات من أساليب الكتابة والتقويم والتحسين المنصبة على الحرف العربي، ويحبب لهذا الرعيل المخلص من رجالات وأعضاء أكاديمية المملكة المغربية تأسيس لجنة من الخبراء والمختصين والمسلحين بالرواية والدراية لتواصل ما توقف من أشكال تجديده وتحديثه منذ عبد الملك بن مروان رحمه الله، وتقبل على وضع المصطلحات وإنجاز المعاجم التي ستشوق إلى السير في دروب هذه اللغة الحافلة بالطاقات والكاشفة عن إعجاز القرآن الكريم.

القرآن الكريم هو الكتاب المنزل على محمد ﷺ، والمنقول عنه بالتواتر، والمتعبد بتلاوته، والمرشد الرباني العام إلى الناس أجمعين، وقد وصف رسول

الله ﷺ نفسه دعوته فقال : «وكان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس كافة[1]» وهو أساس الإسلام وقاعدته، وكتاب العربية الأول والأكبر، وعليه يتوقف دين المسلمين ودنياهم، ولديه حلول كل مشكلات هذا الوجود كما يقول الشافعي رحمه الله[2].

ومن فضل الله على الناس كافة، أن أكرمهم ببعثة سيدنا محمد ﷺ، كما أن من نعم الله على نبيه المصطفى أن أكرمه برسالته، وأيده بالوحي من عنده وأنزل عليه القرآن تثبيتا لقلبه.

وقد اختار الله لوحيه إلى محمد ﷺ أسماء من الله لما سمى به العرب كلامهم جملة وتفصيلا، اشتهر منها اثنان القرآن والكتاب، وفي تسميته بالقرآن إشارة إلى ما سيلقاه من حفظ في الصدر لأنه مصدر القراءة، وفي القراءة استذكار، كما أن في تسميته بالكتاب إيماء إلى جمعه في السطور، لأن معنى الكتابة جمع للحروف ورسم للألفاظ[3].

ويطلق جمع القرآن عند العلماء على معنيين اثنين : أحدهما جمعه بمعنى حفظه، ومنه جمّاع القرآن أي حفّاظه، وثانيهما جمعه بمعنى كتابته كله مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، فأما جمعه بمعنى حفظه فقد ورد في قوله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[4].

وكان ﷺ كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه، يريد أن يحفظه فكان بذلك رسول الله ﷺ سيد الحفاظ وأول الجماع[5].

وقد اقتدى به جماعة من أصحابه فكانوا يحفظون القرآن ويجمعونه في عهده، وقد روى الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «استقرئوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبيّ ومعاذ بن جبل»[6].

وروي أيضا عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أربعة كلهم من الأنصار: أبيّ ومعاذ بن جبل وأبو زيد وزيد بن ثابت». وروي من طريق ثابت عن أنس قال: «مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد»[7]، وتدل هذه الروايات الثلاث عن البخاري على أن عدد الحفاظ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يتجاوز السبعة، مع أن الحفاظ في عهده كثير، وقد تعرض لهم أبو عبيد القاسم بن سلام، وعد من المهاجرين الخلفاء الأربعة، وطلحة وسعدا وابن مسعود وحذيفة وسالما، وأبا هريرة وعبد الله بن السائب والعبادلة وعائشة وحفصة وأم سلمة، ومن الأنصار عبادة بن الصامت ومعاذا الذي يكنى أبا حليمة وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد[8]. وهؤلاء القراء الذين ذكرهم أبو عبيد القاسم بن سلام، ليسوا إلا طائفة من الأصحاب الذين جمعوا كتاب الله في صدورهم، وتمكنوا من عرضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا بذلك تلامذة له، وكان شيخا لهم، أما الذين حفظوه منهم، ولم يتمكنوا من عرضه عليه، فلا يحصون عددا، ولا سيما إذا أدخلنا في عدادهم من لم يكمل الجمع إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم[9].

وليس بغريب أن يكثر الحفاظ من الصحابة، لأنهم اقتدوا بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي يحيي به الليل، ويتلوه في الصلاة ويعارضه جبريل مرة في كل سنة، فكان كتاب الوحي في المحل الأول من عنايتهم يتنافسون في استظهاره وحفظه، ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظونه

منه، وكانوا بدورهم يهجرون لذة النوم وراحة الهجود، إيثارا للذة القيام في الليل، والتلاوة له في الأسحار، والصلاة به والناس نيام، حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في الليل، يسمع فيها دويا كدوي النحل بالقرآن.

وقد روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»[10].

وكان الرسول ﷺ يذكي فيهم روح التنافس على حفظه ويعينهم عليه، ويبعث إلى البعداء منهم من يعلمهم ويقرئهم ويربيهم بالقرآن، فقد بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته، يقرئانهم القرآن ويعلمانهم الإسلام، كما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته ليحفظهم كتاب الله ويربيهم بخلق القرآن، وروى عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يحفظوا أصواتهم لئلا يتغالطوا[11].

ومن هذا الإقبال الكبير من الصحابة على حفظ القرآن يتبين أن ما ذكر في الروايات الثلاث عن البخاري وغيرها من حصر الحفاظ في الأربعة أو السبعة أو الثمانية كما بينه ابن حجر في ترجمة سعيد بن عبيد، من أنه كان من الحفاظ، وأنه كان يلقب بالقارئ إنما حصر إضافي، ولا يعني الحصر الحقيقي حتى ينفي أن يكون غيرهم قد جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ.

وإلى هذا ذهب الماوردي[12] في قوله: لا يلزم من قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لم يجمع القرآن غير أربعة»، أن يكون الواقع كذلك في نفس الأمر، لأنه لا تمكن الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد، ولا يتم له ذلك إلا إذا كان

قد لقي كل واحد منهم، وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، وهذا في غاية البعد في العادة، وكيف يكون الواقع ما ذكر، وقد جاء في صحيح البخاري أيضا من طريق حفص بن عمر أن النبي ﷺ يقول : «خذوا القرآن عن أربعة، عن عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب».

وهناك روايات أخرى حكى بعضهم فيها التواتر، تصرح بأسماء أخرى غير الأسماء الأربعة المذكورين في رواية أنس، منها ما أخرجه النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال : جمعت القرآن فقرأت كل ليلة، فبلغ النبي ﷺ فقال له : إقرأه في شهر إلى آخر الحديث.

ومنها ما أخرجه ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرضي قال : «جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي بن كعب وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري»[13]. وعلى كل حال، فعدد الحفاظ في عهد النبي ﷺ سبعون قارئا، كما قتل يوم اليمامة مثل هذا العدد، ثم ذكر أن أنس بن مالك إنما خص الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم[14].

وذكر السيوطي المشتهرين بإقراء القرآن من الصحابة، فعد منهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأبا الدرداء وأبا موسى الأشعري، وذكر أن أبي بن كعب أقرأ جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وابن عباس وعبد الله بن السائب، وأن ابن عباس أخذ أيضا عن زيد بن ثابت وأن عددا من التابعين أخذ عنهم[15]، مما يؤكد أن هناك في العصر النبوي مدرسة قائمة لتحفيظ القرآن وتدارسه، وأن المسجد النبوي لعب دورا كبيرا في هذا الميدان[16].

ويؤكد ابن الجزري[17] أن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف، مستدلا على ذلك بالحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال : «إن ربي قال لي : قم في قريش فأنذرهم، فقلت له : أي رب، إذن يثلغوا[18] رأسي حتى يدعوه خبزة، فقال : إني مبتليك ومبتل بك ومنزّل عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظانا، فابعث جندا أبعث مثلهم وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وانفق ينفق عليك».

ويدل هذا على أن القرآن يقرأ على ظهر قلب في كل حال، وأن جامعه وحافظه لا يحتاج إلى النظر في صحيفة كتب بالمداد الذي ينطمس ويزول إذا غسل بالماء بخلاف أهل الكتاب الذي لا يحفظونه إلا في الكتب ولا يقرأونه كله إلا نظرا لا عن ظهر قلب[19].

كتابته في عهد الرسول ﷺ

انصرفت همة الرسول أول الأمر كما رأينا إلى جمع القرآن في القلوب حفظا واستظهارا، لأنه نبي أمي بعثه الله في الأميين أولا، ولأن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة في ذلك العهد ثانيا، ولأن العرب أمة، أناجيلهم في صدورهم ثالثا، بحيث يعتمدون على الحفظ في الصدور أكثر من اعتمادهم على الخط بين السطور. ومع ذلك، فقد لقي القرآن الكريم عناية مزدوجة من النبي ﷺ وصحبه من حيث الحفظ والكتابة حتى يقوي كل منهما الآخر، وتظاهر الكتابة في السطور الحفظ في الصدور، بحيث لم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن كتابته ونقشه.

فها هو ذا الرسول ﷺ الموصوف بحرصه الشديد على حفظ القرآن واستظهاره، قد اتخذ كُتّابا للوحي[20] من أجِلاّء الصحابة، كان يأمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن، ويدلهم على موضع المكتوب من سورته زيادة في التوثيق والضبط والاحتياط في كتاب الله، فيخطونه في العسب[21] واللخاف[22] والرقاع[23] والأقتاب[24] والأكتاف[25] وغيرها من أدوات الكتابة الميسرة لهم في العهد النبوي.

روي عن ابن عباس أنه قال : «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه شيء من القرآن، دعا من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت (الأنفال) من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت (براءة) من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما في السبع الطوال[26].

ومما يدل على ذلك بكيفية مجملة، ما ثبت من قراءة رسول الله ﷺ لسور عديدة من القرآن بترتيب آياتها في الصلاة أو في خطبة الجمعة بمشهد من الصحابة كسورة (البقرة) و(آل عمران) و(النساء) وغيرهما، مما يؤكد الإجماع المنقول عن غير واحد من العلماء على أن ترتيب آياتها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبا سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه، فبلغ مبلغ التواتر.

وأما ترتيب السور التي هو عليها الآن، فقد اختلف فيه العلماء إلى ثلاثة أقوال :

القول الأول : يقول بأنه اجتهاد من الصحابة، وأن النبي ﷺ فوض ذلك إلى أمته بعده، بدليل اختلاف مصاحف الصحابة في الترتيب.

القول الثاني : يقول بأن ترتيب بعض السور توقيفي، والبعض الآخر اجتهادي، لأن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها في حياة النبي ﷺ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل، وما سوى هذا يمكن أن يكون النبي ﷺ قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده[27].

وتبين لنا من عرض هذه الأقوال، أن الرأي الأول لا يعتمد على دليل، لأن ما ذكر من اجتهاد الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة، إنما هو اختيار شخصي لم يحاولوا أن يلزموا به أحدا، أما الرأي الثاني فلا يقدم كذلك دليلا يعتمد عليه في القسم الاجتهادي، وكل أدلته إنما ترتكز على النصوص الدالة على ما هو توقيفي، أما الرأي الثالث، فهو الرأي الراجح، لأن الحقيقة التي يجب اتباعها هي أن تآليف السور على هذا الترتيب توقيفي لا مجال فيه للاجتهاد.

وإلى هذا الترتيب ذهب أبو بكر الأنباري في قوله : أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه حسب النوازل والمتطلبات فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جوابا لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسور، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن.

وإذا كان القرآن لم يجمع آنذاك في مصحف واحد، فلأن قراءه وحفاظه في العهد النبوي كثر، وقد علل الزركشي هذه الظاهرة بقوله : «وإنما لم يكتب

في عهد النبي ﷺ مصحف لئلا يفضي إلى تغيير في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ».

وقد وفق الله الخلفاء الراشدين لهذا الواجب، فقاموا به أحسن قيام حفظا لكتاب الله مصداقا لقوله غز وجل : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر، 9).

جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه

وفق الله أبا بكر لإنجاز أهم عمل إسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ إذ شرح صدره لجمع كتاب الله، فكان أول من جمعه في مصحف مرتب الآيات، كما روي عن الرسول ﷺ سالكا النهج النبوي في جمعه وكتابته.

قال أبو عبد الله المحاسبي[28] في كتاب «فهم السنن» : «كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه ﷺ، كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب وإنما أمر الصِدِّيق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا، وكان ذلك بمنزله أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ، فيها القرآن منتشرا، فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء»[29].

وكان جمع أبو بكر رضي الله عنه للقرآن بعد موقعة اليمامة، سنة اثنتي عشرة للهجرة وفيها دارت رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب، وكانت معركة حامية، واستشهد فيها سبعون من قراء الصحابة وحفظتهم للقرآن فهال ذلك المسلمين، وعز الخطب على عمر بن الخطاب،

فاقترح على أبي بكر أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ، فتردد أبو بكر أول الأمر، مخافة أن لا يحدث في الدين ما لا يحمد عقباه، وبعد مفاوضة بينه وبين عمر اقتنع أبو بكر بصواب اقتراح عمر، وشرح الله صدره لتنفيذه.

وفي ذلك يروي الإمام البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : «أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أرى أن تامر بجمع القرآن، قلت لعمر : كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله ؟ ﷺ قال عمر : هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رآى عمر، قال زيد، قال أبو بكر : إنك رجل شاب لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن واجمعه فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت :كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ، قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حيث وجدت آخر سورة التوبة مع ابن خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ حتى خاتمة (براءة) فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر»[30].

وهذا الحديث يدلنا على السبب الذي جعل أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقوم بجمع القرآن وعلى اهتمام الصحابة بالمحافظة عليه، كما يدلنا على مبلغ ثقة أبي بكر وعمر في زيد بن ثابت، وعلى المناقب التي جعلته جديرا بتلك الثقة من ديانة متينة، وأمانة تامة، وورع صادق وعقل راجح.

وقد انتهج زيد ابن ثابت في إنجازه لهذا العمل الإسلامي العظيم طريقة أبي بكر وعمر البالغة في الدقة والإحكام، والمطبوعة بكامل الحيطة والحذر، فلم يكن يكتفي بما حفظ وكتب وما سمع، بل كان يفرغ جهده في التتبع والاستقصاء، آخذا العهد على نفسه، ألا يقبل في جمعه إلا ما كان محفوظا في صدور الرجال، وما كتب بين يدي رسول ﷺ بشهادة شاهدين عدلين، يدل على هذا ما أخرجه ابن أبي داود[31] من طريق يحيى ابن عبد الرحمن بن حاطب قال : قدم عمر فقال : «من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئا من القرآن فليات به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان»[32] كما يدل عليه أيضا ما أخرجه ابن أبي داود، ولكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه[33] أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : «اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه»[34]. والمراد بالشاهدين كما قال ابن حجر الحفظ والكتابة.

وذكر السخاوي[35] في جمال القراء، أن المراد بذلك، أنهما يشهدان على ذلك المكتوب كتب بين يدي النبي ﷺ، مما يدل على أن زيد ابن ثابت التزم بكامل التثبت في جمعه لكتاب الله، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة معتمدين على ضرورة شاهدين عدلين على كل منهما بانفراد[36].

وقوله في الحديث : «ووجدت آخر سورة التوبة مع ابن خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره»، لا ينافي منهجه المتبع، ولا يعني أنها ليست متواترة، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره، أما هو فيحفظها كما يحفظها كثير من الصحابة، وبما أنه كان يعتمد علة الحفظ والكتابة معا، فإن هذه الآية كانت محفوظة عند كثير منهم، ويشهدون بأنها كتبت بين يدي رسول الله ﷺ، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند ابن خزيمة الأنصاري.

وعلى هذا النمط من التوثيق والمبالغة في الاحتياط، سار زيد بن ثابت في جمعه للقرآن حتى حقق هدفه، وأنجز أعظم مهمة إسلامية في التاريخ، تذكرها الأجيال باستمرار، فتنحني إكباراً لكل من شارك فيها إشرافا واقتراحا، وتنفيذا ومعاونة وإقرارا.

والمسلمون اليوم وفي كل وقت، حينما يتذكرون المهمة، ويستعرضون مراحل إنجازها، لا يسعهم إلا أن يكبروا عزائم الصحابة الذين وهبوا أنفسهم لله، ويترحموا على أبي بكر الذي كان أول من جمع بين اللوحين كتاب الله[37] وهكذا تم جمع القرآن وكتابته في صحف، بفضل إشراف أبي بكر واقتراح عمر وتنفيذ زيد بن ثابت ومعاونة الصحابة أجمعين، وقد كانت تلك الصحف محفوظة عند أبي بكر ثم عند عمر بعده، ثم عند حفصة بعد وفاة عمر، وهي تمتاز بكونها جامعة القرآن المتواتر كله، بكيفية متناهية في الدقة، وأنها مجردة عن كل ما نسخت تلاوته، وأنها جمعت الأحرف السبعة وظفرت بإجماع الأمة[38].

جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه

أما جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد فرضته الظروف الناشئة عن اتساع الفتوحات الإسلامية، واستبحار العمران، وتفرق المسلمين في الأمصار، وكان أهل كل مصر يأخذون بقراءة من اشتهر من الصحابة، ووجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن، مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها فكانوا إذا اجتمعوا في بعض المناسبات، عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف وحتى إذا اقتنع بأنها كلها مسندة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن هناك طائفة أخرى لم تدرك الرسول لتطمئن إلى حكمه وتصدر عن رأيه، فانتشر الاختلاف واستفحل داؤه حتى كفّر البعض منها البعض الآخر.

وقد أخرج بن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنه قال : «لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلقنون، فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفّر بعضهم بعضا، فبلغ ذلك عثمان، فخطب فقال : أنتم عندي تختلفون ؟ فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافا(39)، وكما ظن عثمان فقد كانت الأمصار النائية أشد اختلافا ونزاعا من المدينة والحجاز، وكان أهلها إذا جمعتهم المجامع، أو التقوا على جهاد أعدائهم يعجبون من وجوه هذا الاختلاف، وفي بعض الأحيان، يؤدي بهم الإمعان في العجب إلى اللجاج والتاتيم، وهذا ما جعل حذيفة ابن اليمان يفزع إلى عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ويخبره بما شاهد في فتح أرمينية وأدربيجان من اختلاف المسلمين، حسبما يروي البخاري في صحيحه بسنده عن ابن شهاب، أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأدربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عمر إلى حفصة أن ارسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق(40).

بهذه الأسباب تحرك عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باحثا بثاقب فكره وصادق نظره عن الوسيلة المثلى لاستيصال الداء، فجمع أعلام الصحابة للمذاكرة معهم في علاج داء الاختلاف وحسم مادة النزاع، فاتفقوا على رأب الصدع وتوحيد الصف، وذلك باستنساخ المصاحف الرسمية، وإحراق كل ما عداها، وتزويد الأمصار بنسخ منها حتى تكون العمدة في التلاوة والإقراء بين المسلمين، كما اتفقوا أيضا على أنهم لا يكتبون في هذه المصاحف الرسمية إلا إذا تحققوا أنه قرآن لم ينسخ وعلموا أنه قد استقر في العرضة الأخيرة، وأن تحتمل كتابتها الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، وأن يقتصر فيها على ما ثبت بالتواتر، وأن يجرد منها كل ما ليس قرآنا مما يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة، شرحا لمعنى أو بيانا لناسخ ومنسوخ[41].

وتنفيذا للمنهج المتبع، استجاب الصحابة كلهم وحرقوا مصاحفهم، واجتمعوا على المصاحف العثمانية، حتى أن عبد الله بن مسعود الذي أبى أن يحرق مصحفه في البداية، انضم بدوره إلى الجماعة في النهاية، حين ظهر له صواب الفكرة في توحيد الكلمة بها، واجتماع الأمة عليها، فطهر الله الجو الإسلامي من أوبئة الشقاق والنزاع، وأصبحت الصحف الخاصة كلها في خبر كان.

رحم الله عثمان بن عفان، فقد وحّد الأمة الإسلامية بعمله الجليل، وأغلق باب الفتنة عن المسلمين، وجعل القرآن الكريم، يتلى بكيفية موحدة في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم الدين... ولن يستطيع المرجفون أن ينالوا من عمله المبرور، أو يشوهوا صنيعه المشكور بقولهم : «حراق مصاحف» لأنه لم يقدم على إحراق المصاحف إلا بعد أن حصل على موافقة الصحابة وتأييدهم.

فقد روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال : سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : «يا معشر الناس، اتقوا ربكم وإياكم والغلو في عثمان وقولكم : حراق مصاحف، فوالله ما أحرقها إلا عن ملإ منا أصحاب رسول الله ﷺ»[42].

وعن عمرو بن سعيد قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان»[43] وكل ما فعل عثمان رضي الله عنه، هو أنه انتبه للفتنة التي برز قرنها، وقطع دابرها، وحسم الخلاف المستشري بين المسلمين، وحصّن القرآن من أن يتلاعب به الأهواء، ويتطرق إليه من الزيادة أو التحريف على توالي العصور وتعاقب الأزمان.

وقد أبى عثمان رضي الله عنه إلا أن ينسخ مصاحفه من صحف حفصة لتكون مسندة إلى أصل أبي بكر المستند بدوره إلى أصل النبي ﷺ المكتوب بين يديه بأمره وتوقيف منه، حتى يسدد بذلك أفواه المتقولين والمتشككين، فقد قال أبو عبد الله المحاسبي : تلك المصاحف التي كتب منها القرآن كانت عند الصدّيق لتكون إماما، ولم تفارق الصديق في حياته ولا عمر في أيامه، ثم كانت عند حفصة، لا تمكن منها، ولما احتيج إلى جمع الناس على قراءة واحدة وقع الاختيار عليها في أيام عثمان، فأخذ ذلك الإمام ونسخ في المصاحف[44].

وقد بقيت تلك الصحف عند حفصة حياتها، فلما توفيت، أخذها مروان بن الحكم فأحرقها، ومما قاله مدافعا عن وجهة نظره : «إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن الصحف مرتاب[45].

وقد اختلف العلماء في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق، فبعضهم قال إنها أربع نسخ، احتفظ بنسخة واحدة منها في المدينة وبعث النسخ الأخرى إلى كل من الكوفة والبصرة والشام. والبعض الآخر قال إنها سبع نسخ، لأنه بعث نسخا أخرى منها إلى مكة واليمن والبحرين، زيادة على ما سبق أن بعثه إلى كل من الكوفة والبصرة والشام وإلى القول الأول ذهب أبو عمرو الداني(46)، أما السيوطي فيرى أنها خمسة(47). على أن الرغبة التي حدت بعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في استنساخ المصاحف تجعلنا نميل إلى القول الذي ذهب إلى أنها سبع نسخ(48)، لأنه لا يعقل أن يترك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مراكز مهمة مثل مكة والبحرين واليمن بدون نسخ من مصاحفه الرسمية، في الوقت الذي نجده يمكن بعض الأفراد من الحصول على نسخ لأنفسهم(49).

وأيا ما كان فقد اشتملت تلك المصاحف على القرآن كله منحصرا في مائة وأربع عشرة سورة خالية من النقط والشكل وأسماء السور وغيرها مثل صحف أبي بكر المجردة بدورها عن كل ذلك، وتجردها من النقط والشكل جعل رسم بعض الكلمات القرآنية صالحة لأن تقرأ بأكثر من وجه كقوله تعالى : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ **فَتَبَيَّنُوا**﴾، فقد قرئت أيضا (**فَتَثَبَّتُوا**) وكذلك كلمة «أُفّ» التي ورد أنها تقرأ بسبعة وثلاثين وجها.

أما الكلمات التي لا تدل على أكثر من وجه عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بوجه آخر، فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على وجه، وفي البعض الآخر برسم آخر يدل على الوجه الثاني كقراءة «وصّى» بالتضعيف، وأوصى بالهمز، وهما وجهان واردان في قوله تعالى : ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوب﴾.

وقد جعل الصحابة ينتهجون هذه اللحظة في رسم المصاحف كونهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بجميع وجوه قراءاته وبكافة حروفه التي نزل عليها فكان ذلك أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها، حتى لا يقال إنهم أسقطوا شيئا من قراءاته، أو منعوا أحدا من القراءة بأي حرف شاء على حين أنها كلها منقولة نقلا متواترا عن رسول الله ﷺ الذي يقول : «فأي ذلك قرأتم أصبتم، فلا تماروا»[50].

وقد قوى عثمان رضي الله عنه إقبال الناس على تلقي القرآن من صدور الرجال بما أقدم عليه من اعتماد الحفاظ وإرساله الموافق منهم من حيث القراءة مع المصحف الخاص بكل إقليم، فكان زيد ابن ثابت مقرئ المصحف المدني وعبد الله بن السائب مقرئ المكي، والمغيرة بن شهاب مقرئ الشامي وأبو عبد الرحمن السلمي مقرئ الكوفي وعامر بن عبد القيس مقرىء البصري[51].

وقد نقل التابعون عن الصحابة، فقرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم تلقيا عن الصحابة الذين تلقوه من فم رسول الله ﷺ ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم، وأجمع جل بلدهم على تلقي قراءاتهم واعتماد رواياتهم، ومن هنا نسبت القراءة إليهم.

والمصادر التاريخية كلها تتحدث عن هذه المصاحف العثمانية وتتساءل : أين توجد اليوم ؟ وقد ذهب المستشرق «كازانوفا» إلى أن أحد هذه المصاحف العثمانية كان في مستهل القرن، الرابع الهجري معروفا في بعض الأوساط العلمية، وأن الرحالة المشهور ابن بطوطة رأى بنفسه بعض تلك المصاحف في غرناطة ومراكش والبصرة خلال رحلاته الكثيرة، وذكر ابن كثير أنه رأى مصحف الشام

بجامع دمشق شرقى المقصورة المعمورة بذكر الله. وهو كما قال : «الكتاب عزيز جليل عظيم، ضخم بخط حسن مبين قوي بحبر محكم، في رق أظنه من جلود الإبل»[52] وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذا المصحف بقي في مسجد دمشق حتى احترق فيه سنة 1310 هـ[53]. وقد نقل الدكتور صبحي الصالح عن زميله الدكتور يوسف العش أن القاضى عبد المحسن الأسطواني أخبره بأنه قد رأى المصحف الشامي قبل احتراقه وكان محفوظا بالمقصورة، وله بيت خشب[54]، أما المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب والآثار في مصر، فإن العلماء يشكون في نسبتها إلى عثمان رضي الله عنه لأن بها كما قالوا زركشة ونقوشا موضوعة كعلامة للفصل بين السور، ولبيان أعشار القرآن، والمصاحف العثمانية خالية من كل هذا، ومجردة كما هو معلوم حتى من النقط والشكل.

وذكر الزرقاني أن المصحف المحفوظ في خزانة الآثار بالمسجد الحسني والمنسوب إلى عثمان رضي الله عنه مكتوب بالخط الكوفي القديم، وأن رسمه يوافق رسم المصحف المدني أو الشامي حيث رسم فيه كلمة «من يرتدد» من سورة المائدة بدالين اثنين مع فك الإدغام وهي فيها بهذا الرسم، وأكبر الظن كما يقول : أن هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها.

يتلخص مما تقدم أن جمع القرآن كان في عهد النبي ﷺ وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه، وفي عهد عمر رضي الله عنه، وأن الجمع في عهد النبي ﷺ كان مرتب الآيات، متفرقا بين عسب وعظام ورقاع حسب الوسائل المتيسرة للكتابة اذ ذاك، وأن الغرض منه زيادة التوثيق للقرآن، بحيث تظاهر كتابته في السطور، حفظه في الصدور.

أما الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه، فقد كان في صحف مرتب الآيات، مقتصرا فيه على ما لم تنسخ تلاوته، مستوثقا له بالتواتر والإجماع، وكان الدافع إليه خشية ذهاب شيء منه بموت حفاظه وحملته[55].

أما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فقد كان عبارة عن تنظيم ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام، واستنساخ مصاحف منه، ترسل إلى الآفاق الإسلامية جمعا للناس على القراءات الثابتة عن النبي ﷺ، وإطفاء للفتنة التي اشتعلت «بسبب الاختلافات في القراءة» بين المسلمين.

الهوامش

1) صحيح البخاري، «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي».

2) الرسالة، ص 20.

3) السيوطي «الإتقان»، ج 1، ص 51.

4) سورة القيامة، الآيتان 16-17.

5) البخاري – كتاب الوحي، ص 4.

6) «صحيح البخاري»، مناقب الأنصار، ص 45.

7) «الاتقان» للسوطي، ج 1، ص 72.

8) «الإتقان» للسيوطي، ج 1، ص 74.

9) أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي من أئمة الحديث والفقه صاحِب «كتاب الأموال» المشهور، ت 224 هـ.

10) «مباحث في علوم القرآن»، صبحي الصالح، ص 68.

11) «مناهل العرفان» – الزرقاني، ص 234.

12) هو أبو الحسن علي بن حبيب الشافعي صاحب كتاب «أدب الدنيا والدين»، توفي 450 هـــ.

13) «مناهل العرفان» – الزرقاني، ص 237.

14) «الإتقان» للسيوطي، ج 1، ص 73.

15) «الإتقان» السيوطي، ج 1، ص 75.

16) «مباحث في علوم القرآن»، مناع القطان، ص 121.

17) محمد بن محمد أبو الخير شمس الدين الشهير بابن الجزري شيخ القراء في عصره، توفي 833 هـ.

18) ثلغ رأسه شدخه، ويقال : ثلغ أيضا.

19) «مباحث في علوم القرآن»، صبحي الصالح، ص 69.

20) منهج أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وأبان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس.

21) العسيب ج عسب وهو جريد النخل.

22) اللخاف ج لخفة وهي صفائح الحجارة الدقاق.

23) الرقاع ج رقعة وقد تكون من جلد أو ورق.

24) الأقتاب ج قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه.

25) الأكتاف ج كتف وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد أن يجف.

26) السيوطي «الإتقان»، ج 1، ص 62.

27) «البرهان»، للزركشي، ج 1، ص 56.

28) هو الحارث بن أسد المحاسبي ويكنى أبا عبد الله، كان أستاذ البغداديين في عصره، توفي سنة 243 هـــ، انظر «الأعلام» للزركشي/ج 2، 153.

29) السيوطي، «التقان»، ج 1، ص 60/الزركشي – «البرهان»، ج 1، ص 238.

30) «مسند أحمد بن حنبل»، ج 1، ص 13.

31) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني من كتبه «المصاحف» – انظر «الأعلام»، ج 4، ص 224.

32) السيوطي، «الإتقان»، ج 1، ص 60.

33) رجال ثقات مع انقطاعه.

34) السيوطي، «الإتقان»، ج 1، ص 60.

35) هو علي بن محمد بن عبد الصمد المشهور بالسخاوي له منظومة في القراءات، توفي سنة 643 هـــ.
36) صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، ص 76.
37) الزركشي، «البرهان»، ج 1، ص 239.
38) الزرقاني، «مناهل العرفان»، ص 246.
39) «تفسير الطبري»، ج 1، ص 61-62، تحقيق السيد محمد محمد شاكر وأحمد محمد شاكر.
40) «صحيح البخاري»، كتاب فضائل القرآن، السيوطي، «الإتقان»، ج 1، ص 61.
41) الزرقاني في «مناهل العرفان»، ص 254.
42) السيوطي، «الإتقان»، ج 1، ص 61.
43) ابن أبي داود، «المصاحف»، ص 12.
44) «البرهان»، ج 1، ص 239.
45) «المصاحف»، لابن أبي دود، ص 25.
46) «المقنع»، ص 10.
47) السيوطي، «الإتقان»، ج 1، ص 62.
48) «المصاحف»، لابن أبي داود، ص 34.
49) صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، ص 84.
50) الزرقاني في «مناهل العرفان في علوم القرآن»، ج ، ص 252.
51) صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، ص 76.
52) محمد كرد علي، «خطط الشام»، ج 5، ص 279.
53) السيوطي، ج 1، ص 61.
54) الزرقاني، «مناهل العرفان»، ج 1، ص 255.
55) الزرقاني، «مناهل العرفان» ج 12، ص 255.